جامعة إفريقيا العالمية
المركـز الإسلامـي الإفريقـي

المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية
(بمناسبة مرور (١٤) قرناً على نزوله)

٢٠ - ٢٢ محرم ١٤٣٣هـ ، الموافق ١٥ - ١٧ ديسمبر ٢٠١١م
الخرطوم - السودان

لجنة الأوراق والسكرتارية

الأوراق العلمية

(الكتاب الثالث)

الإخراج الفني والتصميم

الأستاذ: طارق فاروق عبدالله هارون
الأستاذ: عبدالرحمن محمد الوسيلة

تصميم الغلاف

الشيخ الأمير

محرم ١٤٣٣هـ / نوفمبر ٢٠١١م

لجنة الأوراق والسكرتارية

١) الدكتور/ عمر أحمد سعيد	رئيساً .
٢) الدكتور/ عبدالقيوم عبدالحليم الحسن	رئيساً مناوباً.
٣) الدكتور/ كمال محمد جاه الله	عضواً .
٤) الدكتور/ محمد عبدالقادر محمد	عضواً
٥) الدكتور/ يوسف خميس أبورفاس	عضواً .
٦) الدكتور/ المعتصم محمد الأمين	عضواً .
٧) الأستاذ/ طارق فاروق عبدالله هارون	عضواً مقرراً .
٨) السماني علي أحمد	عضواً .

المحتويات

م	المـــــوضـــوع	رقم الصفحة
١.	**المحتويات**	أ
٢.	**مقدمة الكتاب**	ب
٣.	**تقديم الكتاب: بروفسور حسن مكي محمد أحمد**	ج
٤.	**إسهامات لغة القرآن الكريم في الدراسات اللغوية المعاصرة** (المستويان الصوتي و النحوي أنموذجاً) **(د. الصديق آدم بركات السودان)**	١ ـ ٤٣
٥.	**المدارس القرآنية في نيجيريا نشأتها ونظامها وآفاق المستقبل (أ.د. الطاهر محمد داؤد – نيجيريا)**	٤٥ ـ ٦٣
٦.	**التنوع البشري في القرآن الكريم** Human Biodiversity **(أ.د/ مبارك محمد علي المجذوب- السودان)**	٦٥ ـ ٧٥
٧.	**مراحل تكوين الجنين في الطب الحديث في ضوء الإشارات القرآنية (أ.د/ مبيوع مصطفي عبد الوهاب السودان)**	٧٧ ـ ٨٧
٨.	**التواؤم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية (أ.د . علي الطاهر شرف الدين –السودان)**	٨٩ ـ ١٣٠
٩.	**التنمية من منظور قرآني (د/ فتح الرحمن عبدالله محمد الصافي –السودان)**	١٣١ ـ ١٦٧
١٠.	**القيم التربوية الاجتماعية في القرآن الكريم (أ. تهاني وداعة عثمان علي- السودان)**	١٦٩ ـ ١٨٦
١١.	**تنظيم الجماعات في القرءان الكريم بالتطبيق على نظام الأسرة (د/ حنان احمد مكاوي سليمان –السودان)**	١٨٧ ـ ٢١٥

Online Publishing Committee لجنة التغطية الالكترونية

د. أشرف محمد عبدالله / أ.عبدالماجد محمد أحمد / أ.مصطفى حسن ابراهيم / أ.التجاني محمد احمد كرار

١٢.	أساليب التربية في القرآن الكريم (دراسة خاصة بأسلوبي الترغيب والترهيب)(د/ أحمد الريح يوسف أحمد أبو عاقلة- السودان)	٢١٧ ـ ٢٣٩
١٣.	فلسفة التربية في ضوء القرآن الكريم(دراسة خاصة بالإنسان) (الدكتور/ عمر أحمد سعيد- السودان)	٢٤١ ـ ٢٧١
١٤.	تاريخ علم الإعجاز القرآني (د. احمد حسن عمر حسن- السودان)	٢٧٣ ـ ٢٩٦

مقدمة الكتاب:

نضع بين يديك- عزيزي القاريء- هذه المجموعة من الأوراق العلمية التي كتبت بأقلام متنوعة، قد تكون مختلفة في تناولها للقضايا التي تطرحها، لكن يجمعها أنها تصب في بحيرة واحدة تمثل محاور المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في الحضارة الإنسانية الذي تداعت له أقلام الباحثين بمختلف مشاربهم وتخصصاتهم.

الحق أن هذه الأوراق المشار إليها ما كان لها أن تكون بهذه الصورة التي عليها الآن لولا اجتيازها لعدد من المحطات، التي تأتي في مقدمتها، تحكيم مستخلصها وإعادة تحريرها عبر لجنة مختصة، ومن ثم تحكيم الورقة نفسها عبر لجنة مختصة أيضا، ومن ثم تصحيحها لغوياً بواسطة لغوي متميز في مضمار التدقيق اللغوي.

ارتكازاً على ذلك ندرك مدى الجهد الذي بذل في إعداد محتويات هذا المجلد من الأوراق العلمية التي نأمل أن تقع موقعاً حسناً عند القرّاء فذاك ما نصبو إليه، والله ولي التوفيق.

تقديم الكتاب

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يؤدي هذا المؤتمر العلمي مهمته، كاملة في التعريف بدور القرآن في تشكيل الحياة الإنسانية على استحالة ذلك بالطبع. لأن لهذا الكتاب الإلهي إسهاماته التي تبدو وكأنها لا متناهية في تشكيل التاريخ الإنساني، وتشكيل الفضاء العام وتشكيل العقل والوجدان وكل ما يتعلق بالإنسان ودوره في هذه الحياة.

كل ذلك لان القرآن خطاب الله الكامل للإنسان ، الكتاب الجامع المفتوح للدراسة والتأمل في كل زمان ومكان ، هو مصدر المعارف الدائم يَعْظُم من يأخذ منه ، ويَشْرُف من يلجأ إليه، مورد الخير ومنبع البركة والنعمة وهو الحبل المتين والقوة التي لا تلين. لكل ذلك لم ينقطع الاهتمام به والاحتفاء بعظمته منذ أن نزل وسيظل كذلك إلى ما شاء الله. كما أن الإسلام، حتى وفي ظروف الكبت والإقصاء والتهميش، ظل بفضل هذا الكتاب يُمثل المرجعية للأفراد والمجتمعات سراً وباطناً في ظل أوضاع الاضطهاد والحرب ومحاكم التفتيش التي ما تزال دائرة في بعض بقاع الأرض.

والحق أن اهتمام جامعة إفريقيا وأهل السودان به لم يأت من فراغ، وإنما يعود ذلك إلى الأهداف والوجهة الأولى للمركز الإسلامي الإفريقي، نواة هذه الجامعة، التي احتضنها أهل السودان شعباً وحكومةً، وآزرهم عليها قوم كرام وحكومات وهيئات كريمة ، وهي ذات الجهات التي تدعم اليوم مؤتمر القرآن الكريم.

ولا يزال القرآن الكريم من أكبر اهتمامات جامعة إفريقيا المتمثلة في مطلوبات الجامعة المهولة من القرآن ودراساته، وحلقاته العامرة في مساجدها وقاعاتها.

لجنة التغطية الالكترونية Online Publishing Committee

د. أشرف محمد عبدالله / أ.عبدالماجد محمد أحمد / أ.مصطفى حسن ابراهيم / أ.التجاني محمد احمد كرار

"المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية" جاء عنواناً لهذا التجمع القرآني الكبير . عنواناً تنطوي تحته محاور تركز في مجملها على إسهام القرآن في حضارة الإنسان في كل مجالات الإسهام . نتج عنه هذه الأوراق التي تصب بحوثها في خدمه القرآن وإبراز دوره الحضاري.

(ج)

هذا المؤتمر مجرد محاوله متواضعة لقراءة دور القرآن في بناء المجتمعات الإسلامية وكذلك معرفة إسهام العلوم التي بثها العقل الإسلامي في إعادة تشكيل العقل الإنساني الذي قاد لحضارة العلمية الحديثة، كما أن القرآن يظل وراء كل حدث كبير، وما التحولات الجارية في العالم الإسلامي اليوم إلا صدىً لهذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، لان القرآن وراء ازدهار المساجد ووراء إعمار الشباب لدور العبادة، ووراء العودة لله، والقرآن هو التجويد والعلم والعقل والتدبر، وطهارة اليد واللسان والعفة، وطهارة العقل والبنان وطهارة الجنان— وفي إطار هذه المعاني يجئ هذا المؤتمر.

ولكي يظهر المؤتمر في الصورة اللائقة بعظمة القرآن حرصت الجامعة على البرامج المصاحبة ومن بينها معرض القرآن الكريم الذي يبرز جهود أهل القرآن بالسودان وغيره من البلدان، الجهود الرسمية والشعبية القديمة منها والحديثة.

كما تشمل التظاهرة حدثاً قرآنياً كبيراً تتجمع فيه خلاوي السودان بفسيفسائها وأطيافها المختلفة حول " تُقَّابة القرآن " نار القرآن العظمى التي تجسد تقاليد أهل السودان في تعليم القرآن ودراسته.

بالإضافة لذلك فأن هذه التظاهرة ستشهد مشاركة وفعاليات واسعة من الشخصيات والمؤسسات المعنية بالقرآن محلياَ وإقليميا وعالمياً بما يبلور عظمه القرآن وجلاله.

Online Publishing Committee لجنة التغطية الالكترونية

د. أشرف محمد عبدالله / أ.عبدالماجد محمد أحمد / أ.مصطفى حسن ابراهيم / أ.التجاني محمد احمد كرار

وأنا ، إذ أقدم هذا الكتاب للمؤتمرين والقراء وأصحاب الشأن والاهتمام ، لا أشك في أن قيام هذا المؤتمر بهذه الصورة سيجلب الخير والبركة لجامعة إفريقيا ومجتمعها ، وللسودان وأهله ودولته ، عليه اسأل الله أن يكون في كل ذلك عملاً صالحاً وجهداً مباركاً ، وان يكون لهذا الكتاب الذي يحتوي على طائفة من الأوراق المقدمة في المؤتمر فائدة عامة ودور ايجابي في التعريف بالمؤتمر بما يشحذ الهمم ويثير القرائح للإسهام في نجاحه وازدهاره .

واسأله تعالى أيضاً أن يكون هذا المؤتمر مجرد فاتحة لمئات المؤتمرات التي تتناول هذا الشأن.

والله ولي التوفيق،،

بروفيسور/ حسن مكي محمد أحمد
مدير جامعة إفريقيا العالمية

جامعة إفريقيا العالمية International University of Africa IUA

المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية

THE HOLLY QURAN: INTERNATIONAL CONFERECE

التواؤم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية

المحور الخامس: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

(العلوم الطبيعية)

٢٠ ـ ٢٢ محرم ١٤٣٣هـ ، الموافق ١٥ ـ ١٧ ديسمبر ٢٠١١م

الخرطوم، السودان

لجنة التغطية الالكترونية Online Publishing Committee

د. أشرف محمد عبدالله / أ.عبدالماجد محمد أحمد / أ.مصطفى حسن ابراهيم / أ.التجاني محمد احمد كرار

جامعة إفريقيا العالمية International University of Africa IUA

المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية

THE HOLLY QURAN: INTERNATIONAL CONFERECE

إعداد:

أ.د . علي الطاهر شرف الدين

أستاذ الطبيعيات – جامعة الخرطوم

مدير معهد السودان للعلوم الطبيعية - رئيس لجنة العلوم الأساسية بالتعليم العالي والبحث العلمي بالسودان

لجنة التغطية الالكترونية Online Publishing Committee

د. أشرف محمد عبدالله / أ.عبدالماجد محمد أحمد / أ.مصطفى حسن ابراهيم / أ.التجاني محمد احمد كرار

الخلاصـــة:

القرآن المجيد رسالة الله الخاتمة لبني الإنسان؛ فيه تتسق الدلالات القرآنية لآياته تعالى الكونية مع الدلالات الكونية لآياته القرآنية، ويتلازم في الخطاب القرآني روعة الإعجاز الرفيع مع دقة الإيجاز البديع. فهو كلام الله وأمره في خلقه، وما يجري في الكون هو من سننه وفعله. فلا يكون بين كلامه عز وجل وفعله إلا التواؤم والالتئام والتناغم والانسجام والتكامل والانتظام. وتتجلى روعة هذا التواؤم والاتساق، بين آياته تعالى في القرآن وآياته في الأنفس والآفاق. وذلك كلما اتسعت مدارك المتدبرين وتبلورت رؤى المتفكرين في دلالات هذا الكتاب الحكيم وفهم بيانه القويم عن تغاير الأشياء وتباينها وتكاثر الأحياء وتفرعها وتناظر الأسماء وتنوعها.

في هذا البحث رؤية عن المزاوجة بين ما تضمنه كتاب الله في وحيه من هداية وأحكام، وما ينطوي عليه خلق الله في الكون من سنن وإحكام.

مقدمة:

القرآن الحكيم خاتم رسالات الله إلى البشرية. فهو منذ نزوله خطاب لكل إنسان في كل مكان وزمان. وقد حفظه الله تعالى من التحريف والتبديل وجعله خالداً لا تنقطع هدايته، تتواصل عبر الأجيال، وتتطور مع كل حال. يتجدد عطاؤه وتتعمق دلالات نصوصه كلما اتسعت آفاق المتدبرين وتطورت معارف المتفكرين في ما يعتمل في الكون من حدث محسوس وما تنفعل بتأثيره النفوس. أي أنه كلما ترقت مدارك العقل الإنساني في مدارج العلم بطبائع الأشياء ومسالك الأحياء تكشفت له دروب من المعرفة وضروب من العلم بدلالات آي الكتاب العظيم. وهو كتاب شامل مهيمن على كل المعارف، متصل العطاء لا ينضب معينه. فهو مصدر للهداية بكل وجوهها، إذ إنها لا تقتصر على هداية الأنفس لتزكيتها وفلاحها بل تشمل كذلك هداية العقول لرشدها وصلاحها. فهي هداية لمعرفة حقائق الوحي كما هي هداية لمعرفة حقائق الكون. وحقائق الوحي تستمد أساسا من علوم الدين وحقائق الكون تكتسب أساسا من علوم الطبيعية، ولكن بين هذه وتلك تكامل. فالعلم المستمد من الوحي يرشد إلى المقاصد ويجيب عن السؤال: لماذا؟ وكل ما يتعلق بالغيب المستور، والعلم المكتسب يجيب عن سؤال: كيف؟ وكل ما يرتبط بالكون المنظور. وكلاهما يسهم في تجليه الحقيقة في تواؤم وتكامل وانسجام، ودون تعارض أو تناقض وانفصام. والكشف عن هذا التواؤم بين الآيات القرآنية والآيات الكونية إنما يتأتى من خلال نهج رشيد في المزاوجة بين

مدلول النص القرآني وما يفضي إليه العلم الطبيعي. فهذه المزاوجة يجب أن تكون على درجة كبيرة من الدقة والحيطة والحكمة دونما إقحام لآي الكتاب الحكيم في غير دلالتها أو أعتساف لمعانيها أو تهافت في تحميلها غير ما تحتمل لتوافق نظرية علمية عن ظاهرة طبيعية، أو عكس ذلك محاولة تطويع مفهوم عن نظرية علمية عن ظاهرة طبيعية والزج بها لموافقة فهم سطحي لآية قرآنية. فالقرآن حمّال أوجه، ونظريات العلم الطبيعي قابلة للتعديل. لذلك فالمزاوجة القويمة إنما تكون بين فهم سليم للنص القرآني عن ظاهرة كونية وفهم قطعي الدلالة عن حقيقة هذه الظاهرة. وهذا ما نعنيه بالتواؤم والتكامل بين علوم الوحي وعلوم الطبيعية. وهذا التكامل إنما يعبر عن وحدة الغيب والشهادة التي تنم عن وحدانية الخالق.

وحدة الخلق بين عالمي الغيب والشهادة:

إن ما يدركه الإنسان أو يمكن أن يدركه في الطبيعة بحواسه هو ما نسميه عالم الشهادة. إلا أن في الطبيعة ما يستحيل إدراكه بالحواس أو بأي وسيلة مساعدة، إما بسبب وجوده في أطراف الكون القاصية أو بسبب حدوثه في الماضي أو المستقبل. علماً بان ما ندركه الآن من حالة الكون بوساطة الضوء الصادر من النجوم البعيدة إنما يصف حالته في ماضٍ سحيق، ذلك لأن الضوء وإن كانت سرعته كبيرة إلا أنها محدودة. وهكذا فإن ما نشاهده من حولنا في الكون محدود بحدود الزمان والمكان، ويستحيل تجاوز هذه الحدود عن طريق حواسنا. إلا أن ما وراء هذه الحدود يمكن تصوره عقلاً، بل يمكن

وصفه من خلال القانون الطبيعي بحسبه امتداداً لما نشاهده بحواسنا. هذا بالظرف الامتداد العقلي للكون المشاهد غيب نسبي من حيث ارتباط وجوده الزماني والمكاني. أما الغيب المعرف بالألف واللام أو الغيب المطلق، فهو وجود لا يمكن وصفه أو تفسيره بأي قانون طبيعي. ولكن بالطبع فهو محكوم بناموس الوجود الذي يشمل الغيب كما يشمل الشهادة. ومن هذا نجد أن عالم الغيب يحيط بالكون الطبيعي المادي ويسمو عليه ليس من حيث المكان بل من حيث مرتبته في عوالم الوجود، إذ يصير عالم المادة هو أدنى هذه المراتب، وهو ما يسمى بالسماء الدنيا بكل ما تحتويه مما نشاهده أو ندركه في هذا الكون الشاسع. والعلم عن ما يعلو على السماء الدنيا لا يدخل في إطار العلم الطبيعي ولكن يستمد من الوحي الذي فهمنا منه أن الله ﴿پ ڀ ڀ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ﴾ [الملك :الآية ٢]، قد رتب بناء الوجود من هذه السماوات أو الطبقات السبع حيث يسمو بعضها على بعض في المرتبة، ولكنها تتحد في الخلق. والعلم بما يلينا من السماء الدنيا المتمثل في العلم الطبيعي محدود بمحدودية حواسنا وقاصر بقصور إدراكنا ولكنه متطور أبداً كلما اتسعت دائرة هذا الإدراك، وكلما تعمقت معرفتنا بما يعتمل في الكون وفي الطبيعة وفي الحياة.

إن سمو عالم الغيب وتضمنه الكون الطبيعي ينسجم مع شمول الوحي وهيمنته على العلم الطبيعي ومن ثم يدل على وحدة العلم وحدةُ الخلق بين عالمي الغيب والشهادة وارتباط كل ذلك بأصل واحد مستمد من الذات المتفردة

بأحاديتها المتميزة بصمديتها. وهنا يجب ألا يُخلط بين ما نُعنيه من وحدة الخلق في هذا السياق وما ذهب إليه بعض الغلاة من مقولة "وحدة الوجود" التي لا تتفق في مضمونها ومراميها مع ما يعالجه هذا البحث. أما هذا البحث فيتناول من خلال هذه العلاقة التوحيدية التواؤم بين العلم المستمد من الوحي مع شموله والعلم الطبيعي مع قصوره.

قصور العلم الطبيعي:

من هذا يمكن النظر إلى العالم الطبيعي وما يحدث فيه من ظواهر بحسبه مظهراً لوجود غيبي. ومن ثم يصير العلم الطبيعي مدخلاً للإيمان بالغيب من حيث إن الاعتقاد بحقيقة ما يجري في عالم الشهادة وتبين حدوده يستوجب الإيمان بالغيب الذي يمتد وراء هذه الحدود بلا حدود.

كما أسلفنا في ما ذكرناه من أوجه القصور في العلوم الطبيعية والتي كشفت عنها النظريات الحديثة، فإن الباحث المتعمق في دراسة سلوك المادة لابد أن يجد نفسه عند أعتاب الغيب. فالأجسام المادية – كما يمكن تصورها – ليس إلا حالات اختزان للطاقة أو مظاهر لتكوينات متكاثفة وسط وجود ذي طبيعة غيبية على نحو مشابه لقطعة ثلج في بحر تجمدت عن مياهه أو قطرة ماء تكاثفت عن بخاره. وهذه الطبيعة الغيبية يعضدها مبدأ عدم التيقن في الطبيعيات الكمية المؤسس على خاصية "التقطُع" في حالة الجسيمات الدقيقة، الذي يمكن تصوره من خلال ازدواجية

جسيميه – موجية أو (مادية – غيبية) تجعل وجود هذه الجسيمات احتمالياً لا قطعياً في المكان والزمان.

من هذا يمكن الكشف عن حقيقة مهمة، وهي أن العالم الطبيعي المنظور ليس إلا تجليات لعالم غيبي مستور. أي أن أصل المادة ومنشأها وجود غيبي. ومن هذه التجليات والتي يمثل عالمنا صورة منها نشأ الكون والطبيعة وما يعتمل فيهما من تفاعلات.

في القرآن أعظم تجليات الغيب:

تتفاوت تجليات الغيب من حيث الدرجة في المخلوقات؛ فهي في أدنى هذه الدرجات تتمثل في الجمادات التي نعني بها الأجسام القاصرة بذاتها عن الحركة ما لم يؤثر عليها مؤثر خارجي. وتتجلى الطبيعة الغيبية بمستوى أكبر في الأحياء وما ينطوي في سلوكها من غرائز، متدرجة من الحياة النباتية إلى الحيوانية. وأبرز درجات هذا التجلي هو خلق الإنسان بما تفرد به من خاصية إعمال العقل في إدراك قوانين الطبيعة وسنن الكون. وأرقى تجليات الغيب تكون لدى نماذج من البشر اصطفاهم خالق الوجود لتبليغ ما لا يستطيع العقل بلوغه، هم أنبياء الله وحملة رسالاته الذين يمكن أن يطلعهم على غيبه ﴿□ □ □ □ □ □ □ ى
[الجن :٢٦–٢٧] وعلى رأس هؤلاء أتى النبي الخاتم محمد ى يـ يـ □ □ ﴾
صلى الله عليه وسلم. وفي ذروة هذه التجليات وأروعها أوحى الله إليه القرآن الحكيم كتابا شاملاً ومهيمناً على كل المعارف، معبراً عن أعظم تجليات الغيب، ما

فرط الله فيه من شيء، هادياً لمعرفته تعالى ولمعرفة سننه في خلقه. وبهذا يتسم هذا الكتاب المجيد بخطاب ذي خصائص تنم عن إيجازه في البرهان وإعجازه في البيان.

خصائص القرآن:

ليس كلام الله كأي كلام. فالقرآن ليس خطاباً ينتهي معناه عند دلالات ألفاظه في مجال معين أو وقت معين. ولكنه رسالة الله إلى البشرية في كل مكان وعبر كل زمان. لذلك سميت الجملة المكونة لألفاظه آية يتنامى معناها ويتسع كلما ترقى العقل الإنساني في مقدراته على استيعاب دلالاتها. وللسبب ذاته فإن المفسرين لم يقيدوا تفسيراتهم لآي القرآن بأسباب نزولها لأنهم وعوا حقيقة أن كلام الله أعمق من أن يقصر على معنى واحد. كما أنهم كانوا على درجة عالية من التأدب مع هذا الكتاب العظيم. فكثيراً ما ورد في تفاسيرهم إفادات مثل قولهم: هذه الآية تعني فيما تعني، وقولهم: الله أعلم. ولعل ابلغ صور التأدب ما روي عن أبى بكر الصديق – وهو من هو في الإسلام– عندما سئل عن معنى الكلالة، الواردة في سورة النساء، إذ أجاب: أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان. والله) قائلاً: ﵁ورسوله بريئان منه. وقد أفاد المقصود من المعنى. وأخذ به عمر (إني لاستحي أن أخالف أبابكر في رأي رآه. وقد أجمع على هذا المفسرون من بعده. ودرجة الفهم والإحاطة بمعاني الآيات ودلالاتها تزيد بزيادة العلم الذي يزيد مع التقوى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾

[البقرة: ٢٨٢]. كما أن التقوى تفتح البصيرة في التفريق بين ما يلتبس على
[الأنفال :الآية ٢٩]. الناس﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾

ومع عمق دلالات القرآن فإنه في ما يفيد الذكر يناسب كل الناس
ويخاطب كل مستويات العقل، إذ جعله الله ميسوراً في لفظه ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا
[القمر : ١٧] ، كما جعله بيِّناً في مدلوله ﴿ ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ (١٧) ﴾
[يس: ٦٩] هذه الصفة في كتاب الله التي تجعله إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ (٦٩) ﴾
ميسور الفهم للذكر عميق المعنى للفكر يكون القرآن هو الرسالة الخاتمة لبني
الإنسان. ولم يؤمر رسول الله إلا بتبليغها وتبيينها ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ
[النور : ٥٤]. لذلك فإنه عليه السلام لم يعمد إلى تفسير آيات ٱلۡمُبِينُ (٥٤) ﴾
القرآن حتى لا يقصر معناها في دلالة محدودة فلا يجرؤ أحد بعده على مخالفة تفسيره فينغلق بهذا باب الاجتهاد والتفكر فيها لهذا فقد تعددت تفاسير القرآن مع تعاقب الأجيال والحقب. وقد كان عليه السلام يكتفي بالإشارة لآية تتعلق بأمر ما إذ يقول: اقرأوا إن شئتم كذا ويذكر الآية ولا يفسرها بل إنما يبلغها. فلقد دعا النبي المؤمنين يوم حجة الوداع وقال: بلغوا عني ولو آية. وقال في الموقف ذاته: فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ورب مبلغ أوعى من سامع. أي أن من يُبلغُ آية قد يعي معناها أكثر ممن يحملها. وقد طلب ممن استمعوا إلى مقالته ووعوها أن ينقلوها عنه كما سمعوها دون زيادة أو نقصان. وفي هذا إشارة إلى أن أجيالاً لاحقة من المؤمنين قد يكتشفون في القرآن ما لم يكتشفه

من سبقهم كما أن فيه سر خلوده وإعجازه كلما تنزلت معانيه على الأحداث والظروف لكل زمان ومكان.

في ضوء هذه الصفة التي ينفرد بها كتاب الله وما أوردناه عاليه من فهم لآيات الله الكونية وحقائق الوجود وعلاقة الغيب بالشهادة وأصل المادة، يجب أن ندرك أن كلام الله هو أعظم وأروع تجليات غيبه وربوبيته للكون. وعلى هذا يجدر بنا دراسة خصائص القرآن الحكيم ولا سيما التي تعبر عن إعجازه في مجال العلوم الطبيعية والمعرفة الكونية، وذلك من حيث شموله هذه المعرفة وحفظه وثبوت حقائقه وثباتها في كل مكان وخلودها في كل زمان، ومن حيث إنه مجال للبحث والتفكر وطريق للهدى والاستقامة. وهنا يمكن – في إطار هذه المعرفة الكونية – مناقشة خصائص هذا الكتاب العظيم من الجوانب الآتية:

أولاً: خاصية شموله المعرفة الكونية:

لقد أسلفنا القول بأن الكون المنظور إنما يمثل حالة محدودة من وجود غيبي أوسع من أن ندرك طبيعته، وأن القوانين التي تصف السنن الكونية إنما تمثل حالة خاصة من ناموس الوجود. ولذلك فإن العلم الكوني لا يعدو أن يكون جزءاً من المعرفة الكلية. وهذا واضح من قصوره المرتبط بمفاهيم المكان والزمان والمادة، أو من ناحية أخرى، بتاريخ نشوء الإنسان على وجه الأرض ومدى إدراكه المعرفي. بهذا فالعلم الكوني أو الطبيعي لا يخرج عن ما يتوصل إليه العقل الإنساني من حقائق عن الكون والطبيعة. والقرآن وهو يقرر ﴿مَّا

فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ **[الأنعام:الآية ٣٨]** يورد كثيراً من هذه الحقائق الكونية تصريحاً أو تلميحاً، وفي ما سوى ذلك يحرِّض العقل ويحثه على التدبر والتفكر والنظر في آيات الله. ويأتي الخطاب القرآني في ما يتعلق بآياته تعالى الكونية على ثلاثة وجوه؛ إخبار عن حقائق يمكن اختبارها، وحقائق لا يمكن اختبارها وحقائق يمكن استنباطها وسنأتي لمناقشة كل منها في الآتي:

(أ)حقائق قابلة للاختبار:

وهذه نعني بها الإخبار عن حقيقة كونية يمكن اختبارها وإثباتها بالتجربة **[الذاريات:** أو المراقبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ **٤٧]**. فاتساع السماء الكوني حقيقة توصل لها علماء الطبيعيات والكونيات وأثبتت حديثاً بالقياس الفلكي. وهي حقيقة لم يكن المفسرون الأوائل في وضع يمكنهم من إدراكها. وهناك من الحقائق ما يمكن الاستيقان منه بالتجربة كما حدث حتى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن الاستشفاء من استطلاق البطن بعسل النحل التي: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ **[النحل: ٦٩]**. وهؤلاء المتفكرون هم الباحثون في علوم لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ ﴾ الأحياء والكيمياء والصيدلة والطب، وفي سلوك النحل، وفي التركيب الكيمائي للعسل، وفي كيفية الاستفادة منه في الاستدواء. ولقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة على من استعجل شفاء أخيه فتشكك في فائدة العسل بقوله: صدق الله ☐وكذبت بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا.

(ب)حقائق غير قابلة للاختبار:

نقصد بذلك الإخبار عن حقيقة كونية مستنبطة من قانون طبيعي ولكن يستحيل اختبار صحتها بطريق التجربة أو القياسات العلمية فيما يؤمن به علماء الطبيعة – مثلاً – إزاء بداية خلق الكون. فهؤلاء العلماء يصفون كيفية حدوث هذه البداية في الماضي السحيق قبل ما قد يصل إلى نحو عشرين بليون عاماً كما يتحدثون عن نهاية الكون في المستقبل البعيد. ويسود الاعتقاد لدى علماء الكونيات أن المادة الكونية – بما في ذلك الأرض – كانت رتقاً مندمجاً فانفتقت في انفجار هائل لم يستغرق من الزمن أكثر من برهة متناهية في الصغر، حيث انطلقت طاقة عظيمة جعلت درجة الحرارة تفوق (١٠) بلايين درجة، تناقص مقدارها عبر الزمان مع اتساع مطرد في البناء الكوني حتى بلغت درجة من البرودة أتاحت للجسيمات الأولية أن تتآلف مكونة الذرات. ثم مع تزايد البرودة والاتساع تشكلت أجزاء الكون المنظور من مجرات ونجوم بالإضافة للمنظومة الشمسية بما فيها الأرض وما على الأرض من ماء وحياة منشؤها هذا الماء. ثم إن هذا الكون سيواصل اتساعه إلى أن يؤول إلى فناء حراري محتوم لم يحدث بعد – والحمدلله على ذلك – مما يؤكد بداية الخلق وعدم أزلية الكون، إذ لو كان أزلياً – كما يدعي الماديون – لكان هذا الفناء الحراري قد حدث في الماضي. ويعتقد أنه عندما يحدث هذا الفناء الحراري بعدما يستنفذ الكون كل طاقته في عملية الاتساع يصير إلى خمود شامل يعقبه انكماش وانطواء إلى الداخل في أجزاء الكون ليعود كما بدأ.

هذا النموذج الذي يؤمن بصحته علماء الطبيعة يتحدث عن بداية ونهاية الكون، وكلاهما غيب لا تحيط عقولنا بكنهه. ومن المفارقة أن الكثير من الملاحدة الذين كفروا بالخلق يؤمنون بهذا النموذج الكوني الذي يدل على حقيقة الخلق.فها هو القرآن يخاطبهم مستقرراً: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ **[سورة الأنبياء: ٣٠]**، إلا أن هذه الإفادة القرآنية اشمل دلالة من ما يفضي ﴾ إليه النموذج الكوني إذ إنها لا تتعلق فقط بالكون أي بالسماء الدنيا بل تشمل الوجود كله بكل سماواته. وفي هذه الآية إعجاز بيّن من أن الذين كفروا – وليس الذين آمنوا – هم من رأوا هذه الحقيقة ابتداءً. كما يستقررهم بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ [العنكبوت :الآية١٩]. حيث أكد القرآن نهاية عمر الكون بقوله تعالى: ﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ **[الاحقاف: ٣]**، كما بين القرآن كيف ينتهي هذا الكون: ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ ﴾ **[الأنبياء: ١٠٤]**. كذلك يؤكد القرآن أيلولة كل شيء إلى الهلاك: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨ ﴾ **[القصص: ٨٨]**، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ڃ ڃ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ﴾ **[الرحمن: الآيات٢٦–٢٧]** وهذه الآيات تتحدى الذين كفروا وتجعلهم في ورطة إن لم يؤمنوا بالخالق.

(ج) حقائق قابلة للاستنباط:

ونعني بهذه ما تتضمنه الآيات من إثارة لقضايا تتعلق بحقائق في الكون كما تتعلق بالغيب وتدعو إلى التدبر والنظر والتفكر في ملكوت الله واستنباط ما يفضي إليه ذلك من علم عن الطبيعة والحياة. والقرآن يذخر بالخطاب التوجيهي مثل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ **[الأعراف:الآية١٨٥]**، أو قوله **[العنكبوت:٢٠]** وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ تعالى: ﴿ڤ ڨ ڨ ڤ ڤ ڨ ڨ ڃ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ﴾ □**[نوح:الآيات١٥–١٦]**.

والسؤال عن خلق السموات، وهو أمر غيبي، مقرونا بوصف لطبيعة الشمس والقمر، مثار لقضية تجمع بين العالم المستور والعالم المنظور. والخطاب القرآني كثيرا ما يمزج بين الإخبار عن الغيب والإخبار عن الطبيعة والفطرة والحياة بحسب أنها علوم تتكامل للكشف عن حقائق الوجود. ولهذا فكتاب الله هو المصدر الجامع للمعرفة في كل مناحيها، وتبيان لكل شيء فيها، حيث يقول الحق: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾ **[النحل:٨٩]**.

إن وظيفة الرسول عليه السلام أن يبلغ الرسالة ويبين للناس ما نُزّل إليهم فيما يتصل بعلاقتهم بالخالق وبالمخلوقات من حولهم حسب قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ **[المائدة:٦٧]**، أو قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ **[النحل:٤٤]**، ولكن مع ذلك فإن القرآن كان يصرف الرسول عن الإجابة عن الأسئلة التي يُقصد بها شرح ظاهرة طبيعية كسؤالهم في علم الأحياء: ﴿

[البقرة:٢٢٢]، فلم يجبهم ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في ما يفيدهم في أمر دينهم أما ما يحدث للبويضات داخل الرحم فمتروك للعقل البشري لاكتشافه. ومثل ذلك سؤالهم في علم الفلك:﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، فكانت الإجابة في ما يهم السائلين في حياتهم وعبادتهم أما كيف يتحول الهلال إلى بدر ثم يصير مُحاقاً وعلاقة ذلك بحركتي الأرض والقمر، فما بُعث الرسول لبيان ذلك. والإجابة عن مثل هذه الأسئلة متروكة ليتوصل إليها الإنسان كلما ترقى في إعمال عقله متدبراً آيات الله في خلقه ومتفكراً في ملكوته، فيكتشف القوانين التي تحكم وتصف ما ينجم في الكون من ظواهر.

مما أوردنا يمكن الخلوص إلى أن القرآن، وهو الكتاب الجامع لعلوم الوجود، يشمل علوم الكون بحسبه جزءاً من هذا الوجود. وتأتي الحقائق الكونية في سياق النصوص القرآنية إما بوجه صريح يدل عليها، أو بتوجيه للعقل ليكشف عنها. وفي الحالتين فإن مقدار ما نستمده من حقائق كونية من القرآن يزيد كلما تدبرنا آياته وكلما أنعمنا النظر في آيات الكون.

ثانياً: خاصية حفظه وديمومته:

حقيقة أن القرآن شامل لكل ضروب المعرفة ومهيمن عليها وأنه مصدر للعلم بحقائق الكون والوجود ما عُلم منه وما لم يُعلم، يعني أنه خالد ومتجدد العطاء لا ينضب معينه مع الزمن. وتجدد العطاء يفيد خطاب الله للإنسان المتصل عبر

الزمان. فهو محفوظ في كلمات الله لا يعتريه التبديل إذ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الكهف:٢٧]، ومحفوظ من التحريف والتزييف: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٢]. ولقد أكد الله هذا الحفظ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر:٩]، ومع تطور حال المخلوقات عبر الزمان وكلام الله عن الحقائق الكونية ثابت لا يتبدل مثلما لا يتبدل خلقه للكون حيث: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:٢٣]. ﴿ [الروم:٣٠]، أو ما يجري فيه من سنة: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣ ﴾ [يونس:٣٧]، ﴿ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ ڀ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨]. ﴿□ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ [البروج:٢١-٢٢]. ﴾

وإضافة لهذا الحفظ الذي كفله الله لكتابه في ملكوت السماوات فقد سخر له من يحفظونه في صدورهم عن ظهر قلب ويجودون نطقه ويدققون في رسم حروفه وتوثيق قراءاته وضبطها والتفنن في تلاوته وفي طرق كتابته وفي إحصاء عدد آياته وحروفه. ولقد تكشف أن هناك علاقات عددية تحكم هذه الأعداد وغيرها في □القرآن إذ كلها يقبل القسمة على العدد (١٩)، وهذا إعجاز عددي يتفرد به كتاب الله.

ثالثاً: خاصية ختمه للرسالات:

منذ أن أوجد الله الناس على الأرض بعث فيهم أنبياء وأرسل الرسل يحملون الهداية لكل قوم مبشرين ومنذرين ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ ﴾ [فاطر :الآية٢٤]. وكانت هذه الرسالات على قدر ما تتسع له مدارك كل أمة. وما بلغت البشرية درجة من النضج وصارت أهلاً لتلقي رسالة الله التي تلبي حاجة كل إنسان وتخاطب كل وجدان بُعث محمد هاديا

وبشيراً ونذيراً بالقرآن رسالة الله الخالدة للناس كافة. هذه الخاصية في القرآن التي تمثل خلوده وحفظه من التبديل مع شموله وتجدد عطائه للمعرفة في كل مكان وزمان تجعله رسالة الله الخاتمة للإنسان. وفي هذه الخاصية يكمن سر إعجازه. وإعجاز القرآن تتعدد جوانبه. ومن هذه الجوانب سحره البياني الذي خاطب به الجيل الأول في صدر الإسلام. ونحن هنا لا نتطرق لكل جوانب الإعجاز القرآني وسنقصر تناولنا، أساساً – كما أشرنا آنفاً – على الإعجاز الكوني منها.

رابعاً: خاصية إعجازه:

الآيات المعجزات في كتاب الله يتجلى انسجامها وتناغمها مع آيات الله في آفاق الكون وفي خلق الأنفس كلما ترقى العقل البشري في فهم قوانين الطبيعة وتعمق في فهم دلالات النص القرآني والانفعال بإيقاعاته. ولا يزال القرآن يخاطب العقلاء ممن التبس عليهم الأمر فلم يتبينوا الحق:
﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ
فصلت:٥٣]، ويسألهم مستقررا:﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ [عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾
، أو يلفت نظر الإنسان]ق:٦ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ ﴾
. والعقل هو نعمة الله التي]الطارق:٥ إلى خلقه داعياً:﴿ ث ث ٹ ٹ ﴾
تتيح للإنسان استنباط قوانين الطبيعة وتفتح بصيرته لفهم آيات الله المنزلات. وأن التعمق في فهم هذه القوانين والكشف عن سنن الله في ما ينجم من ظواهر طبيعية يفضي إلى اكتشاف أبعاد جديدة في معاني آيات القرآن، وبتطور مقدرات العقل

البشري تتسع دائرة استيعابه لمعاني هذه الآيات. والحقيقة أن الله منزل القرآن هو الذي يهب لطالبي المعرفة العلم بما يستجد فيها لتعميق فهمهم لهذا الكتاب كلما تقدم الزمان. فربما فهم المفسرون الأولون آية قرآنية على نحو يتناسب آنئذ مع علمهم بخواص الأشياء وظواهر الطبيعة، لكن الآية ذاتها يمكن اليوم أن يتولد منها معنى أعمق، وقد يفهمها الجيل الذي يلينا بصورة أكثر عمقاً. وهذا الفيض المتجدد والمستمر من المعاني هو ما قد تُعنيه الآية: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا (١٠٩) ﴾ [الكهف:١٠٩]، وهو ما نعنيه بالإعجاز القرآني والمنهل الرباني الذي لا ينتقص بالأخذ منه ولا يكتفي منه آخذ. وهو ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عبر عنه في وصف كتاب الله بأنه: لا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. لهذا تحدى الله تعالى المرتابين في كلامه: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣]. وبالطبع هم عاجزون حتى لو عاضدهم الجن في ذلك كما بين تعالى لرسوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا (٨٨) ﴾ [الإسراء:٨٨].

حقائق الكون في القرآن وحقائق القرآن في الكون:

إعجاز القرآن – كما أسلفنا – يتجلى في اتساعه لمخاطبة العقل البشري المتصلة على مر العصور في الكشف والتدليل على الحقائق. ويجب الاعتقاد بأن هذا العقل قاصر بطبيعته عن إدراك الحقيقة الكونية النهائية مما يجعله قابلاً للتطور مثلما أنه قاصر عن الإحاطة بكل دلالات آية من القرآن الذي تتسع أبعاد معانيه مع الزمن. كما يجب الاعتقاد بأن الحقائق الكونية، قطعية الصحة، لابد وان تكون متوافقة مع ما يفضي إليه الفهم السوي لنصوص القرآن المتعلقة بهذه الحقائق. وانطلاقاً من هذا فإننا يمكن أن نقوِّم نتائج النظريات الكونية بمعيار فهم صحيح لآيْ القرآن، كما يمكن تقويم فهمنا الظني لآية قرآنية بما ثبتت صحته من قوانين كونية.أيْ أنه يمكن اكتشاف حقيقة كونية من خلال فهم متبصر لنصوص قرآنية، كما يمكن إدراك وتطوير معنى أشمل لآية قرآنية من خلال فهم لحقيقة كونية قطعية. وبهذه المزاوجة بين حقائق الكون في القرآن وحقائق القرآن في الكون تتفتح بصيرة المؤمن في ارتياد آفاق من المعرفة الكونية واستكشاف صور من الإعجاز عنها. وإن أبلغ معاني هذا الإعجاز هو ما يكون متعلقاً بالعلوم الطبيعية التي تُختبر ☐فيها صحة الحقائق بالمراقبة والتجربة وتنضبط بالقياس.

والنص القرآني قابل لمخاطبة كل مستويات العقل عند الفرد خلال تطوره الحياتي كما هو قابل لمخاطبة العقل البشري بوجه عام من خلال ترقيه عبر القرون والأجيال. ويمكن أن نسوق بعض الأمثلة لصور الإعجاز القرآني التي تكشفت عنها معان عميقة بتطور العقل في مجال العلوم الطبيعية. من هذه أن المرء ربما يكتفي

بفهم سطحي أو مباشر – مثلاً – عند قراءة قوله تعالى:﴿ڳ ڳ ڳ ڳ ں
، ولكنه إذا تدبر روعة الخلق في الخلايا العصبية] ں ڻ ﴾ [القيامة:٤
المتعلقة بحاسة اللمس وما في هذا البنان من دقة في ما تطبعه الأنامل من بصمات يتباين رسمها عند أي شخصين حتى بين التوائم في الغالب الأعم، لعرفنا المغزى في تخصيص البنان للتدليل على قدرة الله، ولإدراكنا كم هو عظيم إعجاز الله في خلقه وفي قرآنه. ومثال ذلك إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى
[يس:٨٠]، لكفانا ما يُستقى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾
من معنى مباشر لهذه الآية. إلا أنه خلافاً لما يمكن أن يتبادر للذهن من أن الشجر اليابس هو الذي يُجعل وقوداً، فإن نعته بالخضرة، والذي يبدو لفظاً زائداً من أول وهلة، يثير تساؤلاً عظيماً، ما كان لنا أن نجيب عنه إلا عن طريق معرفتنا المكتسبة من علوم الطبيعيات والأحياء والكيمياء وعلم طبقات الأرض. فهذه العلوم تفيد بأن زيت النفط أو الغاز أو الفحم الحجري الذي تستمد منه في حياتنا المعاصرة وقوداً لتوليد الطاقة قد يكون ناتجاً من المادة الخضراء (اليخضور) في أوراق الشجر التي طُمرت تحت ضغط هائل في جوف الأرض منذ أمد بعيد كما يرى بعض المختصين، وإلا من المؤكد أن طاقة الاحتراق إنما تنتج عن هذا اليخضور. ومن هذا يمكن أن نكتشف بُعداً أعمق ومعنى أشمل لما تنطوي عليه الآية دون أن يكون في هذا الفهم الحديث تناقض مع ما فُهم في الماضي أو ما قد يُفهم من ظاهر منطوقها. وقد لا يستوعب العقل ما ينطوي عليه لفظ قرآني ككلمة برزخ في قوله
[الرحمن:١٩–١٨]، وربما تفهم هذه الكلمة تعالى:﴿ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ﴾

بمعنى حاجز مقارنة بالنص القرآني: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل:الآية٦١] ذلك أن طبيعة الماء في البحرين متباينة كما تنص الآية: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) ﴾**[الفرقان:٥٣]**، وهذا التباين هو الذي يُعزى إليه عدم اختلاط الماء المتحرك في البحرين فينشأ عنه هذا الحاجز البرزخي الذي يمكن تفسيره الآن في ضوء النظرية الجزيئية التي تصف سلوك التيارات السائلة. وهكذا فإن هذا المفهوم الجزيئي لكلمة برزخ كان مُكتنزاً فيها حتى كشفت عن دلالته الطبيعيات الجزيئية.

واكتناز اللفظ الواحد لمعان واسعة من خصائص التعبير القرآني والتي ربما لا تُكتشف من أول وهلة، ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات:٤٧]، مجال للتدبر في آيات الله من اتساع كوني أسلفنا الحديث عنه ومن أيد تحكم بناءه. فالأيد هي محصلة القوى التي تتضافر في حفظ توازن الكون وتماسك بنيانه. نعرف منها القوى التثاقلية والكهرومغناطيسية والنووية بتفاعليها الشديد والضعيف، وربما هناك قوى أخرى لمَّا يكتشفها العلم الحديث.

فالقوة التثاقلية هي التي تجعل الأجرام السماوية متماسكة البناء كما يجعلها متوازنة في ما بينها، وهي التي تتجذب بفعلها الأجسام فتستقر على الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾

[النمل:٦١]، وهذه الرواسي هي التي تحفظ توازن الأرض عند دورانها حول نفسها والتي ذكرت في آية أخرى: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ ﴾[الأنبياء:٣١]، والرواسي الشامخات هي التي تؤثر في حالة الطقس فينعقد ركام السحب عند قممها وتتكاثف الثلوج عليها وتتصهر وتستحيل السحب مطرا تجري من هذه وتلك الأنهار بماء فرات ينحدر من سفوحها بفعل جذب الأرض التي تكفن إليها كل حي وجماد كما قال تعالى في بيان ذلك مذكِّراً الإنسان: ﴿ ڈ
[المرسلات:٢٥-٢٧]، وإذا ڈ ڤ ڤ ڦ ڦ ڤ ڤ ڦ ڦ چ چ ڇ ڇ ڃ ڃ ﴾
عرفنا أن القوة التثاقلية الجاذبية هي التي تحكم نظام الكون الشاسع وهي التي تجعل الكواكب والنجوم وكل الأجسام المنظورة متماسكة متزنة، فإن القوة الكهربية والمغنطيسية هي التي تجعل الذرات المكونة للمادة كياناً مستقراً بفعل تجاذب نواة الذرة مع ما حولها من الكترونات مثلما تستقر الكواكب بأفلاكها المدارية بفعل تجاذبها مع الشمس ومع بعضها بعضاً في المنظومة الشمسية.

وإذا غصنا داخل البناء الذري للمادة سنجد الجسيمات الدقيقة التي تتركب منها نواة الذرة مترابطة في ما بينها بقوة هائلة هي القوة النووية.

وهكذا نجد أن البناء الكوني سواء في عالم الأجسام الجهاري أو الجسيمات المجهرية محكوم بمحصلة هذه القوى التي فتق الله بها الكون بعد أن كان رتقاً، كما أسلفنا شرحه. وهي التي يُعزى لها اتساعه الذي يؤكده القرآن بـــ (إنّا) ولام ☐التوكيد في (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) كما تؤكده المراقبة الفلكية.

إن النظرية التي يعتقد علماء الكونيات في صحتها عن البناء الكوني لا تخرج عن معاني آيات الانفتاق والاتساع المذكورتين آنفاً. وبتعميق فهمنا لهاتين الآيتين يمكن تطوير هذه النظرية. وفي هذا مثال لقابلية القرآن للكشف عن حقائق المعرفة الكونية.

وإذا استقرأنا ما توصل إليه العلم الطبيعي في ضوء آية الانفتاق لأفادنا أن الكون، بما فيه كوكبنا الأرضي الذي تقوم عليه الحياة، والسماء المحيطة به، بل واستصحاباً لمدلول هذه الآية ليشمل بقية السموات التي تكمل مراتب الوجود، كانت جميعها في حالة التحام ففتقها الله بانفجار هائل الشدة في زمن فائق في الصغر يقدر بجزء من مليون من الثانية تدل عليه "فا" التعقيب في قوله تعالى﴿ فَفَتَقۡنَٰهُمَا ﴾ **[الأنبياء: ٣٠].**

وتستطرد النظرية الكونية في وصف اتساع الكون وتناقص حرارته الذي أتاح للجسيمات أن تتآلف مكونة الذرات ثم تآلفت الذرات لتكوين الأجرام السماوية والكواكب بما فيها الأرض. وتفيد هذه النظرية أنه في مرحلة من عملية تطور خلق الكون سمحت الظروف الطبيعية باتحاد ذرات الأكسجين مع ذرات الهيدروجين لتكوين الماء الذي أتاح نشوء الحياة على وجه الأرض. وهذا ما أُخبرت به آية الانفتاق إذ اكتمل نصها بقوله تعالى:﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ ﴾ **[الأنبياء: ٣٠].** وذلك للارتباط المنطقي بين الانفتاق ونشوء الماء والحياة من خلال تسلسل عمليات الخلق.

روعة التعبير ودقة التقدير:

والماء هو المركب الأساس في الكائنات الحية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ **[النور:٤٥]**، ولقد تكرر ذكر الماء في كتاب الله ٦٣ مرة أغلبها في معان تذكر بهذه النعمة الشاملة التي جعلها الله متاحة في الطبيعة بحيث تغطي المياه ٧١% من سطح الكرة الأرضية. فهو موجود في الطبيعة في ثلاث حالات، صلبة وسائلة وغازية. لذلك فهو أحسن واق من انتشار الحرائق وأنجع عامل لإطفائها مع أن جزيئاته مركبة من عنصري الهيدروجين شديد الاشتعال والأكسجين الذي يساعد عليه. وللماء استخدامات ووظائف كثيرة في الحياة. ولكي يؤدي الماء وظيفته الحيوية أودع الله فيه جملة من الخصائص الرائعة. فهو موجود على نطاق واسع في حالة السيولة كما يتبخر ليشيع في الجو قدراً من الرطوبة الضرورية للحياة البيئية ويستحيل بخاراً عند درجة حرارة الغليان كما أنه يتحول إلى ثلج وبرد وجليد عندما تنخفض درجة حرارته إلى الصفر. وعند هذه الدرجة تقل كثافة الماء المتجمد ثلجاً فيطفو على سطح السائل. وبفضل هذه الخاصية الرائعة التي يتفرد بها الماء دون غيره من السوائل تجد الأحياء المائية مأمناً في باطن المحيطات القطبية، حيث يكون الماء، الذي تحجبه عن الهواء البارد طبقة ثلجية، دافئاً نسبياً. ذلك لو كانت كثافة الماء تزيد بالتجمد كما هو الحال في غيره من السوائل لقضى ذلك على الحياة في جوف البحار الشمالية والجنوبية، ولتجمدت كل مياهها بل ولتسببت في كارثة من الطوفان والفيضانات على وجه الأرض.

وهذا الإبداع في خلق الله الذي عبرت عنه آية:﴿□ □ □ □ □ □ ﴾،[القمر:٤٩]، ليكشف عن دقة في التقدير: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون:١٤].

وتوقف الحياة على الماء يبدو أمراً بديهياً إلا انه عندما يأتي ذلك في سياق آية الخلق مشيراً إلى مرحلة من مراحل الانفتاق الكوني يكون أكثر عمقاً في مخاطبة الذين كفروا وأكثر تحدياً لعقولهم.

ومثل هذه الأسئلة التي تتحدى عقول الغافلين أو الضالين تتكرر في القرآن، تسألهم عن خلق السموات والأرض لتقرر حقيقة يمكن أن يتوصل إليها العقل. وقد ظل هذا التحدي قائماً من عهد نوح عليه السلام عندما خاطب قومه:﴿ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڃ ڃ ڄ ڄ ڃ ڃ ڄ ڇ ڇ ﴾ [نوح:١٥-١٦]. والسماوات السبع – كما أسلفنا – هي مراتب الوجود أدناها كوننا المادي المنظور، الذي تمثله السماء الدنيا بما تحتويه من بروج ومن شمس وقمر: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١﴾ [الفرقان:٦١]. والشمس هي السراج الوهاج الذي يشع منه الضياء وتنبعث منه الطاقة التي تعتمد عليها الحياة على وجه الأرض. أما الضوء المنعكس من على سطح القمر هو النور. وحقيقة الفرق بين طبيعة الشمس والقمر لم تكن معروفة قديماً بالوضوح العلمي الذي أشارت إليه الآية والتي لم تُفهم إلا بعد تقدم العلم الطبيعي في عصور متأخرة.

ولقد ناقش العلم الطبيعي قضايا كونية تولدت عنها جملة من الأسئلة كانت إجابة القرآن – كما أسلفنا إزاء تمدد الكون – موجزة وبليغة وحاسمة. ومثل هذه القضايا ما يتعلق بخلق الأرض وكيف تكونت عليها الجبال الرواسي، وكيف تتوغل جذور هذه الرواسي عبر القشرة الأرضية كما تتوغل الأوتاد، وكيف يؤدي وزنها إلى التحكم في استقرارها وفي حركتها من أن تميد وتضطرب. وما توصل إليه العلم الحديث بشأن هذه القضايا كان القرآن قد أوجزه في آيات بيِّنات في قوله تعالى: ﴿ٿ ٿ ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ﴾ [النبأ:٦–٧]. كذلك في قوله الحكيم: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾[لقمان:١٠]، لقد ظل الإنسان ردحاً من الزمان يجهل حدود الأرض ولم يتأكد من كرويتها إلا بعد ما طاف حولها. ولم يكتشف مفسرو القرآن الأوائل سر الإعجاز القرآني في السؤال المتضمن لعبارة:﴿ۆ ۈ ۉ ۇ ۋ ﴾[الغاشية:٢٠]، واكتفوا بما ظهر لهم من معنى [ق:الآية٧] أو قوله تعالى: ﴿ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ ﴾[نوح:١٩]، اكتفوا بما يبدو من معنى مباشر لهذه الآيات وبما ألفوه من انبساط في سطح الأرض ظاهر على مد البصر. إن المتبصر في هذه الآيات يرى أن سطح الأرض المنبسط في كل موضع يجب أن يكون ممتداً إلى ما لا نهاية. والسطح الوحيد الذي يتميز بهذه الصفة الهندسية هو السطح الكروي. وهو الذي يتيح تكور الليل على النهار والنهار على الليل على نحو ما نشهده في الطبيعة بتعاقب الليل والنهار ووفق ما تقول به الآية: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ ﴾ [الزمر:٥]، ويمكن كذلك استنباط ما يشير إلى كروية الأرض من قوله تعالى: ﴿

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ **[يونس:٢٤]**. وأمر الله يأتي للناس جميعاً في وقت واحد كلمح بالبصر كما ، إذن الليل **]القمر:٥٠[**في قوله تعالى: ﴿ ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ ﴾ والنهار المذكورين في الآية يعبران عن وجهي الكرة الأرضية. وهنا يجدر ان نلحظ أن هذه النتيجة العلمية المستوحاة من هذا الفهم المتقدم لا تُناقض ما ذهب إليه المفسرون الأوائل في فهم آية: ﴿ ۆ ۈ ۈ ۇ ۋ ﴾. بل تعمق معناها وتربط دلالاتها بسنة الله في الطبيعة كما تكشف عن إعجاز الخطاب القرآني.

وهذه الصفة الكروية للأرض ناتجة من قوة التثاقل التي تجعلها متماسكة مستقرة أثناء دورانها حول نفسها ودورانها حول الشمس. ومن هذا الدوران تنجم ظواهر طبيعية وتأثيرات بيئية تكون مدعاة للتدبر في آيات الله وسننه الكونية عند الموقنين به كما هي وازع للاستبصار في ما يعتمل في أنفسهم من ذلك: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ **[الذاريات:٢٠-٢١]**، وآيات الخلق وكل ظواهر الطبيعة إنما تخاطب الذين يعقلون: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ

لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ ﴾ **[البقرة:١٦٤]**. وهذه الآيات مع ما فيها من إعجاز هي طريق للهداية والرشاد.

خامساً: خاصية القرآن في الهداية:

شمولية القرآن للمعرفة التي تعبر عن كونه خاتم الرسالات يفيد احتواءه على خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا، كما أفاد الحديث الشريف. وهذا معنى خلوده وتجدد معانيه عبر الزمان وامتداده ليسع كل حال وكل ظرف ومكان. فخلوده هو سر إعجازه، واتساعه يجعله مصدراً للهدى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ **[الإسراء:٩]**، فهو طريق للهداية والإرشاد في كل أمر، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، كما حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم. وهو الفرقان بين الحق وبين الصحة والخطأ وبين الخير والشر وبين والباطل وبين الصدق والزيف الحلال والحرام وبين الفضيلة والرذيلة وبين الإصلاح والإفساد وبين الرشد والغي وبين الهدى والضلال، فهو ﴿ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ **[البقرة:١٨٥]**. ومما لا ريب فيه أن المتقين أحرى بان يجدوا في كتاب الله هداهم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾ **[البقرة:٢]**، وهذه حقيقة يدركها الذين أوتوا العلم ويرون في هذا الكتاب المنزل الحق والهداية: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ ﴾ **[سبأ:٦]**. وفي كل علم من العلوم يكون وجه من الهداية. والهداية في مجال العلوم الكونية تكون في الآتي:

[١] توجيه العقل للرؤية والنظر في آيات الكون:

القرآن حافل بالآيات التي تحث على التدبر في خلق الكون والتفكر في ظواهر الطبيعة. عشرات الآيات تبدأ بالسؤال التقريري كما في قوله تعالى: ألم تر أن الله، أولم يروا، أفرأيتم، أولم ينظروا، أفلا ينظرون، وغيرها. ويعقب هذا السؤال التوجيهي طرح لموضوع يتعلق إما بقضية الخلق أو بسنة من سنن الفطرة او ظاهرة في الطبيعة. كمثال لهذا الخطاب القرآني نورد بعض الآيات التالية:

[إبراهيم:الآية١٩]. ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ﴾

[العنكبوت:الآية١٩]. ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾

[الرعد:الآية٤١]. ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا ﴾

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا
أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي
[الزمر:الآية٢١]. ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢١) ﴾

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ
وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ
[النور:الآية٤٣]. يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ (٤٣) ﴾

[الواقعة:الآيات٦٨– ﴿ ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڬ ڬ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ﴾ ٦٩].

[الأعراف:الآية١٨٥]. ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾

﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ ﴾ [ق:الآية٦].

[سورة الغاشية:الآية١٧]. ﴿ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ﴾

ويكون الخطاب أحياناً توجيهاً مباشراً كما في قوله تعالى:

[يونس:الآية١٠١]. ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾ [العنكبوت:الآية ٢٠].

[عبس:الآيات٢٤–٢٥]. ﴿ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ۈ ۈ ﴾

[الطارق:الآيات٥–٦]. ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٺ ٺ ٿ ٿ ڤ ڤ ڦ ﴾

﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ ﴾ [الأنعام:الآية٩٩].

الطريق لمعرفة الله:

إن النظر والتفكر في آيات الله الكونية يكشف عن ما تنطوي عليه من حكمة وتقدير وإتقان وتدبير ولطف وتيسير. فها هو ذا إبراهيم عليه السلام كان يتلمس طريقه لمعرفة ربه بالنظر في آيات خلقه ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٧٨) ﴾ **[الأنعام:٧٧-٧٨]**، حتى بلغ به المطاف إلى معرفة الله فأسلم وجهه حنيفاً. بهذا يكون إبراهيم عليه السلام قد استنَّ للباحثين عن الحقيقة منهجاً علمياً قويماً. وهكذا عصمه الله من أن يضل وهو نبي، فأراه ملكوت السموات والأرض وليكون موقناً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ **[الأنعام:٧٥]**.

والنظر في ظواهر الطبيعة مثلما هو مدخل لمعرفة الله هو كذلك طريق لمعرفة سننه الكونية ولاكتشاف القوانين الطبيعية التي يمكن تطبيقها لتطوير وسائل الحياة الإنسانية، كما يمكن أن نستنبط منها تصوراً لبُنَى الطبيعة يفضي إلى نظريات تصف لنا ما يعتمل أو ما يمكن أن يعتمل فيها من أحداث.

فالنظرية الكونية الحديثة تقرر أن الأجسام ذات الكتلات العظيمة تؤثر على هندسة الكون. فكلما كانت كثافتها كبيرة كلما كان الفراغ حولها منحنياً غير مستو. لذلك فإن النجوم ذات الكثافة العالية تجعل مسار الأجسام حولها منعرجاً. ولعل

هذا الانعراج هو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾ [سبأ:٢].

وقوة التثاقل الهائلة حول النجوم كثيفة المادة تجعل لمواقع هذه النجوم خصوصية في الخلق يمكن أن تكون سر قسم الله بها في قوله تعالى﴿ ى ى ﯾ ﯾ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

كما أن تباعد هذه النجوم بمسافات أكبر من أن نتصورها بعقولنا إنما يعزز تفسير سر هذا القسم ويزيده وضوحاً. والنجم الضخم يمكن – بفعل هذه القوة المتعاظمة – أن تتضاغط مكوناته فيتقلص منهاراً إلى داخله حتى تتلاصق أنويه الذرات المكونة له وتندمج. وهذا النجم الذي انهار بناؤه وهوى إلى داخله يتكون فقط من النيترونات، ويسمى لذلك نجماً نيترونياً. ويكون له أعظم كثافة ممكنة تبلغ (١،٤) بليون طن في السنتيمتر المكعب الواحد. وتكون جاذبيته أقصى جاذبية لجسم مادي، حيث تتجلى قدرة الخالق فيما أودعه الله فيه من قوة. وقد يكون في ذلك سر قسمه تعالى في أول سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ ﴾[النجم:١]. ولعل المقصود بالنجم الذي هوى، الشعرى اليمانية التي كثيراً ما نشاهدها بالقرب من كوكبة الجبار متلألئة بضوء لونه مائل للزرقة، وقد ورد ذكرها في أواخر السورة ذاتها في آية: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩ ﴾ [النجم:٤٩]، إذ كانت نجماً عملاقاً فانهارت لتصبح نجماً من الأقزام. وهي من أقرب النجوم إلينا إذ تبعد منا حوالي (٨)

سنوات ضوئية. والسنة الضوئية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء لمدة عام بسرعة مقدارها نحو (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية الواحدة.

واسترسالاً في التفكر في آيات الكون يمكن فهم تأثير النجم النيتروني على البناء الكوني حوله، حيث يكون هذا النجم ثاقباً لبنية السماء. وهنا يمكن أن نستأنس بهذا المعنى في فهم ما أقسم به الله: ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ **[الطارق:١-٢]**. ﴾

وربما استأنس به أيضاً من يقولون بوجود ثقوب سوداء في الكون. والثقب الأسود هو نجم يعتقد انه تقلص منهاراً إلى داخله بسبب التجاذب المتعاظم بين أجزائه حتى نعدم حجمه فصار نقطة جذب لا متناه تبتلع كل ما حولها، حتى الضوء لا يمكن انفلاته أو خروجه منها، لذلك سميت ثقباً أسود.

هذا الكون البديع:

وهكذا فإنه كلما تقدم العلم الطبيعي في فهم آيات الكون تكشفت لنا كنوز آيات القرآن. وكلما بحثنا في بناء الكون تجلى لنا الإبداع في تكامل عناصره، والحكمة في توازن قواه، والروعة في انسجام أحداثه، والدقة في تناسق خلقه الذي لا يعتريه خلل: ﴿ﮈ ﮉ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ﴾ [الملك:الآيات٣-٤]. لهذا كان الخطاب القرآني موجهاً نظر المكذبين بحقيقة البعث للتفكر في بناء الكون وخلقه مذكراً المنيبين للتبصر في روعة هذا الخلق: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ **[ق:٧-٨]**.

ومن روائع هذا النظام الرباني المحكم هذه الزوجية التي تسود في الطبيعة وتفضي إلى توازن بديع في شتى مدلولاتها. فقد أسبغها الله على الأحياء من حيوان ونبات في خاصيتي الذكورة والأنوثة كما فطر عليها كل الأشياء: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ **[الذاريات:٤٩]**.

ومن الواضح أن "كل شيء" تعني الأزواج كلها كما في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦﴾ **[يس:٣٦]**.

وعبارة "مما لا يعلمون" تجعل المعنى شاملاً كل صنوف الخلق سواء في عالم الماديات أو حتى المعنويات. وامتداد معنى الزوجية ليشمل ما لا يعلمه الإنسان بعد، يدعو إلى التفكر والبحث في صورها، كما أنه يمثل واحداً من أوجه الإعجاز في كلام الله عن شمول هذه الزوجية وعن تكشف أنواعها كلما ازداد الإنسان علماً. ولقد تجلت هذه الخاصية التكاملية في طبائع الأشياء في زوجية الشحنات الكهربية، وفي الازدواجية الجسيمية – الموجبة للضوء وللمادة بوجه عام ومضادها، وغير ذلك من أنماط الزوجية التي ستظل مجهولة ولمَّا يكتشفها العقل البشري كما تفيد الآية بذلك .

[٢] الكشف عن الحقائق الكونية:

لا يقف القرآن في مجال الهداية عند حد توجيه نظر الإنسان للتفكر في حقائق الكون بل إنه كثيرا ما يتيح الكشف عن هذه الحقائق ولاسيما في أمور يكون العقل قاصراً عن الإحاطة بها أو إثباتها بالتجربة كخبر نشوء الكون ومآله الذي أسلفنا مناقشته، أو كما في قوله تعالى عن تسبيح الأشياء:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ **[الإسراء: ٤٤]**. وعلى الرغم من عدم فهمنا طبيعة هذا التسبيح إلا أنه يمكن تقريبه للأذهان من خلال تصورنا للحركة الترددية التي تعتمل داخل البناء الذري للمادة ويحكمها قانون كمِّي، أو الحركة الدورية للأجرام السماوية التي لا تكف عن سمتها التكرارية التسبيحية. كما أننا يمكن أن نفهم النمط الترددي لهذه الحركة من خلال اعتقادنا بتسبيح الكائنات المادية.

وهناك حقائق قرآنية أخرى يعجز العقل – في زماننا هذا – عن إدراك كنهها ولكنه لا يملك أن يدحضها كحديث الهدهد وحديث النمل في قصة سليمان عليه السلام. وحقيقة أن العقل البشري غير مصمم لاستيعاب لغة غير لغة الإنسان، سوى ما اختص الله به نبييه سليمان. إلاّ أن ملاحظ العلماء تشير إلى وجود طريقة للتخاطب بين أفراد كل جنس من الأحياء كما تؤكد وجود تنظيم فطري بديع لدى ممالك النمل والنحل وغيرها من الحشرات، وفي سلوك الطيور والأحياء المائية وسائر الحيوانات. وهذا ما كشف عنه كلام الله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ ﴾ **[الأنعام:٣٨]**.

وقد تأتي الحقائق الكونية في ثنايا نص قرآني عرضا، أو يمكن استنباطها من إشارة عابرة أو من خلال إخبار غير مباشر. ومثال ذلك إنزال الحديد ورد في سياق الآية من أن فيه بأسا شديدا ومنافع للناس: ﴿ پ ٺ ٺ ٿ ٿ ﴾ **[الحديد:٣٥]**. ففي هذا ما يفيد أن هذا المعدن لم يكن موجودا في تكوين الأرض ربما إبان الحقب السابقة لنشوء الإنسان عليها. وإن إفراده دون غيره من الفلزات يشير إلى خصوصية في خواصه الطبيعية جعلت منه أداة آلية للحصول على الطاقة لمصلحة الإنسان كما هو ضروري لتوفيرها في غذائه. فمنه يتركب اليحمور (الهموجلوبين) في الدم. واللافت للنظر هنا أن ذرات الحديد لا تتركب إلا بطاقة عالية غير متاحة في الأرض مما يفيد نزوله مركباً من خارج هذا الكوكب. ويؤكد ذلك أن النيازك التي تتساقط على الأرض بلا انقطاع ومعظمها

في شكل ذرات تستقر في تربتها تتكون أساساً من عنصر الحديد الذي تمتصه النباتات ثم يدخل كأهم عنصر في غذاء الحيوان والإنسان.

حقائق مستنبطة:

ويمكن استنباط جملة من الحقائق عن الطبيعة من خلال التدقيق في النصوص القرآنية مثال ذلك عن كروية الأرض كما أسلفنا أو عن انخفاض سطحها لأدنى حد عند الموضوع الذي دارت فيه المعركة التي غلب فيها الروم على أيدي الفرس حوالي ٦١٥م، وذلك من قوله تعالى:﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ ﴾ [الروم:٢-٣].كما يمكن استنتاج قلة الأكسجين بالارتفاع عن سطحها من ما يدل عليه النص القرآني: ﴿ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]. أو ضرورة ترك الحصاد مثل القمح في سنبله حفظاً له من التسوس والآفات كما قد يستنبط من قول يوسف عليه السلام: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝٤٧ ﴾ [الرعد:٤١]، [يوسف:٤٧].ويمكن من قوله تعالى: ﴿ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا ﴾ أن نستنتج تزايد حرارة الأرض وما يسمى بالتأثير الصوبي أو بظاهرة الاحتباس الحراري وما يستتبع ذلك من انصهار الجليد والثلوج وارتفاع مياه البحار والمحيطات وسطوها على اليابسة، و من ثم تفسير انتقاص الأرض من أطرافها بتزايد غمرها بالماء بسبب تزايد حرارة الأرض الناجم عن تلوث البيئة. كما أن قوله تعالى:﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤١ ﴾ [الروم:٤١]، يمكن تفسيره بالتلوث الذي يفسد الجو والأرض براً

وبحراً بسبب بعض أعمال الناس وأنشطتهم غير المنضبطة بمبادئ العدل وقيم الفضيلة وما يجره عليهم هذا السلوك من أضرار لعلهم يؤوبون إلى رشدهم.

وثمة استنباطات أخرى لحقائق في علم الكونيات عن خصوصية مواقع النجوم التي أقسم بها الخالق، وعن تكون جزيئات الماء في مرحلة من أن تطور البناء الكوني سابق لنشوء الحياة على الأرض وغير ذلك مما ناقشناه آنفا في سياق الإعجاز القرآني وتواؤم ما قطع بصحته العلم الطبيعي مع ما يفيده مدلول النص القرآني. وبالطبع فإن التوصل إلى حقائق كونية من خلال التبصر في آيات القرآن إنما يعبر عن هذا التواؤم. مثال ذلك الحقيقة المستنبطة من الخبر القرآني: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾ **[يونس:٩٢]**.والدالة على أن جسد فرعون مقدر له أن يبقى عبر القرون على الرغم من أنه لم ينج من الغرق حسب قوله تعالى ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾. **[الإسراء:١٠٣]**.

وقد قدر الله أن يبرع قدماء المصريين في كيمياء التحنيط لتحقيق هذه المعجزة القرآنية إذ اكتشفت مومياء هذا الفرعون في نهاية القرن الماضي لتكون شاهدا على إعجاز القرآن وحفظه. وفي هذا تصحيح لم يرد في سفر الخروج في كتب اليهود والنصارى إزاء حادثة غرق الفرعون. ومثل ذلك، تصحيح توقيت ميلاد عيسى عليه السلام الذي يحتفل به النصارى شتاء، في حين ان في القرآن ما يشير إلى أنه ولد في فصل يكون التمر فيه رطبا حسب ما تعني الآية: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾**[مريم:٢٥]**.والنخل في فلسطين لا يثمر

الرطب الجني في الشتاء. وفي هذه الآية كذلك فائدة صحية عن جدوى الرطب لغذاء المرأة المرضع. وهو ما تؤكده التجربة. والحقائق المستمدة من الكتاب الحكيم تأتي أحيانا بصورة مباشرة، كما سبق ذكره إزاء الفائدة الطبية لعسل النحل، أو ما في الحديد من بأس ومنافع للناس أو في تطور خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ **[المؤمنون:١٢-١٤]**.وهذا الترتيب القرآني لأطوار الخلق هو ما استقر عليه علم الأجِنَّة الحديث. وتتضح الدقة العلمية في هذا النص القرآني من استخدام "ثم" و"الفاء" في تقدير المدى الزمني لتعاقب هذه الأطوار. وخلق الإنسان من الطين، أي من الماء والتراب المكون من عناصر الأرض، حقيقة يؤكدها أن خلايا جسم الإنسان إنما تتركب من هذه العناصر ومن الماء. لذلك فان الذي يرتاب في أمر البعث لا يسنده منطق علمي. فهذا شأنه كمن حدثتنا عنهم آية: ﴿ٻ ٻ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ **[النازعات:١١-١٢]** إذ يكون قد ضرب مثلا ونسي أنه مخلوق من الذرات ذاتها التي نشأت عنها هذه العظام أول مرة﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ **[يس:٧٨،٧٩]**.

ولقد كان الخطاب القرآني للمرتابين في البعث مؤسسا على حجة الخلق: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ

[الحج:٥].والأجل المسمى لتطور الجنين حتى ﴿ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ﴾ يخرج طفلا يمكن استنباطه من الكتاب الحكيم حيث تصير أقل فترة ممكنة للحمل ستة أشهر. وهذه تمثل الفرق في المدة بين ما يدل عليه ﴿ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا ﴾ [الأحقاف:١٥]، وما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ ﴾ [لقمان:١٤]، ولقد روى أن عليا كرم الله وجهه كان قد قضى بجواز هذه المدة، خاصة إذا كان ذلك درءاً لحد الزنا. وفترة العامين هي المدة الطبيعية لإتمام الرضاعة كما ترشد إليه الآية: ﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة:٢٣٣].وهكذا نجد أن الله قد أودع في كتابه بركة من المعاني تفيض في عقولنا كلما تدبرنا آياته: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩].

العلاقة بين المعرفة الكونية والغيبية:

من ما سبق نجد أن القرآن مصدر لمعارف كونية يمكن اكتشافها إما مباشرة أو استنباطا من نصوصه. إلا أن النص القرآني كثيرا ما يربط بين معرفة غيبية لا تكون عقولنا مؤهلة لإدراك أبعادها، ومعرفة كونية يمكن اكتسابها على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **[لقمان:٢٠]**. فقصارى ما يمكن أن نراه أو نكتسبه من معرفة كونية لا يتعدى ما في الأرض أو ما يلبنا من السماء الدنيا. أما بقية السماوات فعلمنا عنها علم عن غيب كما هو علمنا عن الجنة والنار وما وراء ذلك من وجود لا تستوعب عقولنا مكانه أو طول زمانه. والتطلع إلى ما يجري في السماوات العلى أو النفاذ إليها مستحيل إلا بسلطان من الله: ﴿ﮦ ﮨ ﮩ ﮮ ﮯ ﯨ ﯩ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ﴾ **[الرحمن:٣٣]**. ولقد أوتي رسول الله سلطانا لينفذ من أقطار السماوات حين عُرج به فالتقى بالنبيين من قبله، كما رأى حال أمته يوم القيامة. ورأى الجنة كما رأى المعذبين في النار، ومنهم من لمّا يولد بعد في الحياة الدنيا. بهذا فإن نبينا قد شهد الماضي كما شهد المستقبل، علما بأن الرحلة بكاملها لم تستغرق – بحسابنا للزمن – إلا اليسير جدا. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:الآية٤٧].. ولأن عقولنا مكيفة فقط لإدراك ما حولنا من عالم المحسوسات فإن القرآن يمثل لنا المفاهيم الغيبية بصور يمكن استيعابها من ما في الطبيعة. فالجنة أو النار نموذج من الكون الطبيعي يقرب إلى أذهاننا مفهومي الثواب أو العقاب. وكما جاء في الحديث: في الجنة مالا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. لذلك فإن القرآن في

تقريبه لمشاهدها يعطي هذا المثل المحسوس: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ **[محمد:١٥]**.

القرآن وقوانين العلم الطبيعي:

وكما أن صور الغيب يمكن تبسيطها بغرض تقريبها للأذهان وذلك عن طريق تمثيلها بما يلينا من صور الطبيعة ، فإن السنن العامة التي تحكم الوجود يمكن تخصيصها لتناسب حالات يمكننا وصفها. والقوانين الكلية يمكن اختزالها إلى معادلات يمكن حلها. وهكذا فان النصوص القرآنية التي تعبر عن مبادئ شاملة يمكن أن يستنبط منها علاقات يمكن فهمها. مثال ذلك ما أسلفنا مناقشته وأكده القرآن من اتساع مستمر في البناء الكوني ظل يحدث تحت تأثير قوى طبيعية منذ أن فتق الله السماوات والأرض. وقد أكد القرآن ﴿ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ **[البقرة:١٦٥]**، مهما اختلف نوعها وأنه ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ **[الكهف:٣٩]**.وهذا يعني أن كل تغير أو حدث إنما يكون بفعل قوة . وهذا مبدأ عام يتعلق بسنة كونية. وإذا خصصناه لوصف التغير الذي يحدث في المكان والزمان لحصلنا على قانون الحركة – في صياغته الرياضياتية– الذي صار واحدا من أسس العلوم الطبيعية. وإزاء التغير الذي يحدث في حال الناس فإن القرآن قد أكد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ **[الرعد:١١]**. وهذا أيضاً مبدأ عام يفسر ما يجري من تحولات لمجموعة من الناس. فتغير حال الناس لا يحدث إلا بعد أن يحدث التغير الداخلي فيهم. فإذا انفعل الناس بفكرة فإنه لابد أن يترتب على ذلك تغير في سلوكهم أو أنشطتهم، وقد يتزايد هذا الانفعال فيؤدي إلى ثورة أو تحول كلي في حياتهم سلباً أو إيجاباً. هذا المبدأ يمكن تطبيقه في مجال العلم الطبيعي إزاء ما يحدث من تغير في حالة مجموعة من جزيئات سائل ما. فإذا ما انفعلت هذه الجزيئات بقدر من

الطاقة الحرارية فإن سلوكها يتغير، وإذا ما تجاوزت الطاقة المؤثرة حداً معيناً يزداد انفعالها فتثور فيتحول السائل إلى بخار. ومثل السائل، الغاز، فإنه إذا سخن تبدأ جزيئاته في التحرك حتى تتغير أوضاعها ثم إذا اكتسبت طاقة حرارية أكثر فإنها تتحرك جماعياً حيث يتمدد الغاز فتتغير حالته. وهذا القانون الذي يحدث وفقه هذا التغير يعرف بالمبدأ الأول في التحريك الحراري. وهو بهذا يمثل حالة خاصة من مبدأ عام في التغيير أودعه الله في خلق الكون كما أودعه في نصوص القرآن. اي ان القانون الذي يفسر التغير والتحول في التكوينات الجزيئية في المادة يماثل القانون الذي يفسر التغير والتحول في المجتمعات والكيانات الإنسانية.

[٣] توجيه البحث العلمي:

كما أسلفنا، فإن النص القرآني في ثنايا بلاغته الرائعة يذكرنا تارة بأمور مألوفة لدينا لم نوجه تفكيرنا إليها، وتارة يثير فينا التفكير داعياً للنظر في ما تنطوي عليه هذه الأمور من أسرار، وإلى اكتشاف ما تشتمل عليه من حقائق. والقرآن من خلال هذه الدعوة يفتح مجالات للبحث العلمي في إطار الإيمان ويصوبه نحو غايات رشيدة ومحكمة بجملة من الموجهات والضوابط. والبحث العلمي في ظل هذه الموجهات إنما يلبي أهداف العبادة ويتأصل على حقائق الدين ومقاصد الشرع ويلتزم بقيم الفضيلة وينأى عن مزالق الضلال.

والخطاب القرآني يثير قضايا للبحث تتعلق بمواضيع مختلفة في مجالات العلوم الطبيعية. فهذا سؤال في علم الأحياء عن خلق الإبل ومدى مواءمة وظائف

أعضائها للبيئة المحيطة بها وما وراء ذلك من دقة وتقدير. وسؤال آخر في مجال الكونيات عن القوى التي تحكم البناء الكوني في ما يحيط بنا من سماء. وسؤال في علم طبقات الأرض عن نشوء الجبال وانتصابها. وسؤال في علم الهندسة الفراغية عن طبيعة سطح كوكبنا الأرض الممتد بلا انقطاع. هذه الأسئلة التي تمثل مواضيع للبحث والدراسة يعرضها القرآن بأسلوب غاية في اليسر والروعة البلاغية: ﴿ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]. وتأتي مواضيع البحث من خلال النصوص القرآنية مستجيبة لاهتمامات الباحثين في فروع العلوم المختلفة، إما في أسلوب إخباري، أو إقراري كما في قوله تعالى:﴿ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﴾ [النبأ:٦-١٦].

ارتباط العلم الطبيعي بالإيمان:

لقد بينا في ما سبق أن العلم الطبيعي قاصر بطبيعته عن أن يعطي كل الحقيقة عن الوجود. لذلك لابد أن يتأصل على حقائق الغيب حتى يتسق مع غيره من المعارف. كما أوضحنا إمكان أن يكون لمبادئ هذا العلم أصل في القرآن. وبما أن التدبر والتفكر في خلق الكون عبادة يحث عليها الدين، فإن المعرفة الكونية في حقيقتها ضرب من العبادة ومولج إلى الإيمان برب الكون وخالقه. لذلك ارتبط الإيمان بالله وخشيته بالعلم: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، أولو الألباب الذين يذكرون الله في كل أحوالهم ويرون آياته تعالى في الكون فيتدبرونها

ويتقونه. حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ **[آل عمران:١٩٠-١٩١]**. فهؤلاء المتقون يجعل الله لهم فرقاناً بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، ويمتزج في قلوبهم ذكر الله مع التفكر في خلق الله، فتتناغم قلوبهم مع عقولهم خلافا لما عليه الغافلون من الناس. فأولئك: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ **[الأعراف:١٧٩]**. وقد قال الله في هؤلاء: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ **[الحج:٤٦]**. وهنا ما يفيد إلى أن القلب ليس مجرد مضخة لدفع الدم في جسم الإنسان بل هو مستودع معلومات وجهاز إدراك و أداة يفقه بها المرء ويعقل. وهذا ما يتواءم مع نتائج أبحاث حديثة عن أن نقل قلب شخص بزراعته مكان قلب شخص آخر ينقل خصائص المنقول منه إلى المنقول له.

العبادة الشاملة:

فالذين يسيرون في الأرض ويتفكرون في ما ينتظم الكون من بديع خلق الله تنفعل قلوبهم بذكره ويدركون الحكمة والقصد في ما خلق ويحمدونه تعالى على آلائه. فالشمس، هذا السراج الوهاج يمثل المصدر الأساس للحياة على الأرض إذ تبعث بضيائها مفعماً بالطاقة التي تبخر مياه البحار وتعيدها غيثاً يسيل على الأرض أنهاراً فتنبت الزروع وتخضر المروج كما نبهنا لذلك

القرآن﴿چ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ڪ ﴾ [النبأ:١٣–١٦]. وهذه الطاقة الهابطة من السماء تخزنها النباتات في أوراقها وثمارها لتستحيل غذاء للحيوان والإنسان بوساطة عملية التمثيل الضوئي. أي وتجليات‍ها ولعل هذا ما يكشف عن سر قسم الله ﴿ٱ ب ٻ ﴾ [الشمس:١]. أي وتجلياتها في الطبيعة والحياة. والله يوجهنا للنظر في ما يجري في الطبيعة وإلى القصد من ورائه: ﴿ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ۑ ۑ ﴾ [عبس:٢٤–٣٢].

فهذا بعض ما أفاض الله به من نعمه على الإنسان. ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾ [النحل:١٨]. لذلك يجب على المؤمنين المتدبرين في خلق الله أن يستغفروا ربهم على ما قد يعتريهم من غفلة عن إدراك هذه النعم التي أودعها الله في الطبيعة، ولعلهم عندئذٍ يرددون دعوة نوح عليه السلام:﴿ی ی ی ی □ □ □ ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ڪ گ ﴾ [نوح:١٠–٢٠].

إن مقتضى عبادة الله في شمولها يعني استشعار نعمه تعالى في كل حال واستحضار عظمته وجلاله في كل مآل، والنظر فيما تنطوي عليه آياته الكونية من حكمة وتدبير، وإتقان وتقدير، ولطف وتيسير، والخلوص بذلك إلى التسليم له تعالى بالعبودية والطاعة. وهذا هو مقصد الخلق كما يقول الله: ﴿

[الذاريات:٥٦]. فهم مجبولون على أن ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ يتواءم سلوكهم مع ناموس الله في الوجود وتنسجم حركتهم مع سننه تعالى في الفطرة: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ **[آل عمران:٨٣]**.

الشعائر التعبدية والحركة الكونية:

والإسلام كَرْهاً هو ما تَجْبِلُ عليه سنة الخلق، والإسلام طوعاً أكثر ما يتمثل في أداء الشعائر التعبدية. وأن هذه الشعائر التي تعبر عن ذكر الله وشكره قد ارتبطت بحركتي الأرض بالنسبة لأظهر جرمين سماويين يشاهدهما الناس منها، هما الشمس والقمر، وما ينتج عن ذلك من ظواهر طبيعية كتتابع السنين والشهور وتعاقب الليل والنهار: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ **[الفرقان:٦١–٦٢]**. والمؤمنون يذكرون الله بالصلاة عند كسوف الشمس وخسوف القمر، فهما آيتان من آيات الله ومن أوجه نعمه التي تستوجب الشكر له. وإنما تقام **[طه:١٤]**.ولقد ارتبطت هذه الصلاة لذكره تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤)﴾ الشعيرة بمواقيت يلتزم المؤمنون بأدائها فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا **[النساء:١٠٣]**. وينطلق صوت الأذان خمس مرات كلما دارت مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾ الأرض دورة حول نفسها ليبث في كل أرجاء الكون ويعلن للعالمين نداء التوحيد. وتقام الصلاة كلما استدارت الأرض بالنسبة للشمس: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ **[هود:١١٤]**، فريضة قبل شروق الشمس، أحد طرفي النهار، وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾

وفريقان في طرفه الآخر قبل غروبها من عند الزوال، وسنتين بعد غروبها إلى غسق الليل. وهنا يجب أن نلحظ الحكمة والإعجاز في أن هذه الصلوات خمسة ولكن أوقاتها المذكورة في القرآن ثلاثة. ذلك لأن القرآن خطاب لكل الناس في جميع أحوالهم وفي كل مواقعهم من الكرة الأرضية وفي سائر فصول السنة. فمن حال إلى حال ومن موقع إلى موقع ومن فصل إلى فصل يمكن الجمع بين صلاتي الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، في السفر والمرض والمطر، كما يتداخل وقتا الظهر والعصر في شمال الكرة الأرضية شتاءً، ووقتا المغرب والعشاء صيفاً. وفي ذلك إعجاز مبين وحكمة للعارفين ويسر للعابدين.

والصلاة عماد الدين وعمود الإسلام، لذلك فإن الله خصها بوضع مرموق، إذ لم تفرض في الأرض كسائر العبادات ولكن في احتفال سماوي عجيب. وذلك عندما عُرج بالنبي إلى الملأ الأعلى حيث تقصر قوانين الطبيعة عن وصف هذا الحدث ولكنها تشير بهذا إلى امتداد في الوجود وراء الكون المادي. ومثل الصلاة، سائر العبادات الأخرى يتساوق فعلها مع حركة الكون. فكما أن الصلاة أكثر العبادات تكراراً كلما دارت الأرض حول نفسها في مواجهة الشمس فإن الزكاة أكثر ارتباطاً بدورة الطبيعة في حياة الأنعام وعند حصاد الزروع: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ **[الأنعام:١٤١]**. لذلك فأداؤها كفريضة يتكرر كلما دارت الأرض مرة حول الشمس. وعندما تأخذ الشمس والقمر والأرض في دورانها وضعاً معيناً، بعد حالة الاقتران التي يكون فيها القمر في وضع بين الأرض والشمس ومحاذياً لكلتيهما يتيح انعكاس ضياء الشمس من على سطح القمر إلى الأرض، يمكن رؤية الهلال. وبذلك تحدد

بداية الشهور ونعلم عدد السنين والحساب كما بين لنا القرآن: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ [يونس:٥]. في هذه الآية ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾ تمييز علمي بين الضياء الصادر من المنبع الشمس والنور المنعكس من على سطح القمر، كما أن كلمة ضياء تفيد الجمع أو التعدد وهو ما يعرف بأطياف الضوء بألوانه السبعة المعبرة عن تفاوت أطواله الموجية، وفي هذا دقة وإعجاز علمي. وبعلم الحساب نتحرى رؤية هلال شهر رمضان وكل الشهور التي ترتبط بهذه الظاهرة الكونية التي تتكرر أثنتي عشرة مرة في كل عام كما جاء في كتابه تعالى: [التوبة:٣٦]. ومن اللافت ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ للنظر هنا أن كلمة شهر وردت في كتاب الله (١٢) مرة ومثل ذلك كلمة اليوم تكررت بعدد أيام السنة الشمسية. وهذا جانب من الإعجاز القرآني العددي الذي قد يتسع البحث فيه خارج إطار هذه الدراسة. وإضافة لذلك فإن صوم رمضان موقوت بدورة الأرض حول نفسها للإفطار عند الغروب وللامساك عند الفجر. ولأن رؤية الهلال لا تثبت لكل الناس، إذ لا يشتركون جميعهم في ليل واحد ومنطقة واحدة، فإن مواقيتهم تختلف على جانبي الكرة الأرضية، ولكنهم جميعهم يؤدون فريضة الحج بميقات زمني واحد. وفي هذا نجد الإعجاز بيِّناً في قوله تعالى عن الأهلة: ﴿ قُلۡ هِيَ [البقرة:١٨٩]. فإفراد الحج دون غيره من العبادات المرتبطة مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ ﴾ برؤية الأهلة كالصوم والزكاة راجع لكون الناس يكونون في موضع واحد هو مكة المكرمة فلا تتعدد الأهلة لديهم. أما لغيرهم المنتشرين على سطح الأرض فتتعدد رؤية الأهلة مع انحناء سطح الأرض. وما كانت لتتعدد لو كان هذا

السطح مستوياً، إذن لرأى كل الناس الهلال في وقت واحد، ولكن بزوايا مختلفة. وهذا التفاوت في وقت ظهور الأهلة يدل على كروية الأرض، كما يدل على دقة التعبير القرآني وإعجازه. ومع ارتباط الحج بدوران القمر والأرض فإنه كذلك يتكرر مع دورانهما حول الشمس. وفي أداء مناسك الحج رمزية متميزة تحاكي دوران الكواكب حول الشمس في شعيرة الطواف أو السعي بين الصفا والمروة، وهذه الحركة الدورانية تكون دائماً من اليمين إلى الشمال فيما يسمى (عكس عقرب الساعة) وهي سمة غالبة في الكون في حركة الأشياء وسلوك الأحياء.

وخلاصة القول، إن العبادات في ارتباطها بحركة الكون تخرج الإنسان من حياة رتيبة إلى كنف حياة منفعلة بذكر الله. والعبادة في معناها الشامل تجعل سلوكه متناغماً مع سنن الله.

خاتمة:

كل ما أوردنا في هذه الدراسة من دلالات لآيات القرآن الحكيم متبصرين في محتواها، متفكرين في معناها، متدبرين في مرماها، إنما تكشف عن خصائص هذا الكتاب الحكيم. فهو خطاب متفرد من حيث إنه محفوظ في نصوصه، شامل في مضامين هذه النصوص ومتميز بتجدد فهمها وإدراك ما تنطوي عليه هذه المضامين. وبالتأمل في معناه وإعمال الفكر في محتواه تتجلى صورة المزاوجة بين ما أنزل الله في القرآن وما أودع في الكون من آيات وما يتكشف عن هذه المزاوجة من مواءمة وتناغم وانسجام تنم عن إيجاز في القول والتعبير وإعجاز في الخلق والتقدير والأمر والتسيير ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ **[الأعراف:٥٤]**. فكتاب الله هو المصدر الجامع الكامل للهداية في شتى وجوهها. وكما أنه يهدي للمعرفة الكونية فإنه كذلك يهدي لما سواها من المعارف والعلوم. ويُستمدُ العلم بطبيعة الكون وتُكشف حقائقه إما مباشرة من تلقاء النصوص القرآنية أو استنباطاً منها. ويتسع مجال الكشف عن هذه الحقائق كلما تعمق الباحثون عنها في إدراك معاني آيات الله المنزلات مع التدقيق في فهم آياته الكونيات، والقرآن لا ينفد منهله ولا ينضب معينه، فكلما اكتسب الإنسان علماً عن ما يحيط به من الكون والطبيعة والحياة تفتق عقله عن إدراك معان جديدة في هذا الكتاب المعجز. وهكذا يدرك – في زماننا هذا – المتفكرون في آيات التنزيل دلائل كونية لم يكن العلم بها متاحاً لسلفنا الصالح من مفسري القرآن الكريم. ولسوف يأتي بعدنا في الأجيال اللاحقة – إن شاء الله – ممن يكتسبون العلم ويدركون من أسرار القرآن وخفايا

الكون ما لا ندركه اليوم. إلا إن اكتساب العلم مرتبط بالتقوى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، مثلما ترتبط الهداية بها ﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ② ﴾ [البقرة:١-٢]. والعلم الكوني الموصول بالله هو الذي يقود إلى تقدم حقيقي في حياة الناس.

ولقد شهدت الحضارة الإسلامية ازدهاراً ملحوظاً عندما ترعرع العلم الكوني في أحضان الإيمان بالله واستهدى علماء الطبيعة بالقرآن. فقد برع هؤلاء العلماء في شتى المعارف الكونية، وشهد لهم التاريخ بإسهاماتهم الرائعة وإنجازاتهم الواسعة.

وأخيراً ندعو علماء الأمة أن يعيدوا سيرة أسلافهم بأن يستمدوا العلم من القرآن بعقول مفتوحة على آيات الله الكونية ويكتسبوا العلم من الكون بعقول مدركة لدلالات آياته القرآنية. وهذا ما نعنيه بالتواؤم البديع والتناغم الرفيع بين □إيقاعات الوحي المنقول ودلالات العلم المعقول.

المراجع

أولاً: مراجع أساسة:

- القرآن المجيد.
- تفسير الجلالين.
- في ظلال القرآن لسيد قطب.
- صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني- دار القرآن الكريم – بيروت ١٤٠٢هـ.
- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم – إعداد صبحي عبد الرؤوف عصر – دار الفضيلة – دمشق – ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.
- معجم الأحاديث النبوية – على أقراص صخر الحاسوبية المدمجة.

ثانياً: دراسات وبحوث للمؤلف تكمل الموضوع:

- تأصيل المعرفة أسسه وأهدافه، مجلة التأصيل، العدد ٦ يناير ١٩٩٨م. إدارة تأصيل المعرفة – وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- الخرطوم- السودان.
- حول الخصائص القرآنية في مجال العلوم الكونية – مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية – العدد ٣ المحرم ١٤١٨هـ – أم درمان – السودان.
- التأصيل الإسلامي ومنهجية العلوم الطبيعية – من أعمال حلقة العمل العلمية حول قضايا تأصيل المعرفة – مركز التنوير المعرفي – الخرطوم مارس ٢٠٠٥م.
- حول أخلاقيات البحث العلمي – مجلة أبحاث الإيمان – العدد ١١ شوال ١٤٢٠هـ – المركز العالمي لأبحاث الإيمان – الخرطوم – السودان.
- إضاءات قرآنية حول ضياء الشمس وضحاها–مجلة أبحاث الإيمان–العدد ١٧ ربيع الأول ١٤٢٦هـ – المركز العالمي لأبحاث الإيمان – الخرطوم – السودان.
- هلال رمضان بين نظرية الرؤية ورؤية النظر–مجلة مجمع الفقه الإسلامي – العدد الأول السنة الأولى ١٤٢٢هـ الخرطوم – السودان.

- الإسراء والمعراج بين المنقول والمعقول-مجلة أبحاث الإيمان – العدد ١٢ جمادى الأولى ١٤٢١هـ – المركز العالمي لأبحاث الإيمان – الخرطوم – السودان.

ثالثاً: مراجع أخرى:

- الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان – مترجم من الأردية – صادر عن المجمع العلمي الإسلامي، دار البحوث العلمية – ندوة العلماء – لكنو – الهند – منشورات الشركة المتحدة للتوزيع بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.
- التصور الإسلامي للوجود– حسن الحياري– دار البشير للنشر والتوزيع– عمان– الأردن ١٤٠٩هـ.
- آيات قرآنية في مشكاة العلم– يحيى المحجري– دار النصر للطباعة الإسلامية القاهرة – مصر – ١٩٩١م.
- بنية المادة بين الوجود والعدم – محمد ممدوح الخطيب – دار النشر للتوزيع – عمان – الاردن – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – ١٤١٦هـ.
- القوة العظمى– باول ديفز– ترجم من الانجليزية– وزارة الثقافة والإعلام– بغداد– العراق– ١٩٨٩م.

- The Matter's Myth, by Paul Davies & John Gribbin

- ترجمة م. علي يوسف علي، تحت اسم أسطورة المادة– الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة ١٩٩٨م.

- La Bible, Le Coran et la Science – Par Maurice Bucaille, Seghers, 31 Rue Falguière, 75,725 Paris, Cedex 15.

- ترجم من الفرنسية بعنوان: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة – دار المعارف– الطبعة الرابعة – القاهرة – مصر – سبتمبر ١٩٧٧م.
- من محاضرات الشيخ عبد المجيد الزنداني – جامعة الإيمان – صنعاء – اليمن.
- من محاضرات د. زغلول النجار – هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.